العالم واللغة والشاعر (١)

بقلم اروين ادمان
ترجمة إحسان الملائكة

الفنان يستخدم دائما مادة ما ، انه يبني بالحجر او اللون او الكلمات . لكن فن الكلام ـ لا سيما حين يستخدمه الشاعر ـ هو احد اشد المعضلات غرابة وتعقيدا في جميع نظريات الفن . ان اللغة في احد وجوهها اداة انسانية عملية جدا ، لانها الوسيلة التي لا بد منها للتفاهم بين الناس في شؤونهم المادية اليومية . ومع ذلك فاننا لو فكرنا في اللغة دون النظر في مدلولاتها او معطياتها العملية والمنطقية لوجدناها ادق وسائط الاتصال وامتنها . انها هفافة ونابضة بالحياة مثل الموسيقى . والشاعر ملزم بان يبني بالكلمات ما يقوم اللون والخط لدى الرسام بابرازه وتثبيته . وعلى هذا فمن الممكن ان نعتبر الادب كله ـ وبصورة خاصة الشعر ـ فنا مولدا مختلطا . فهو من ناحية لحن موسيقي تحدد تأثيراته بانغامه الخاصة . لحن يتقيد بالاصوات المتجسدة في الفاظ معينة وهو من ناحية اخرى صورة من صور التفاهم القائم على مؤثرات موسيقية قوية . وعلى هذا فان الشعر شكل تخيلي وعرضي ومؤثر من اشكال التفاهم والاتصال بين الناس .

ان هاتين النزعتين في الشعر ، اعني اتجاهه الى ان يكون مجرد فن صوتي خالص ، او فن اجتماعي محض ، انما تعكسان ازدواجية اللغة ، وتشعب مصادر الادب . فاللغة تحتفظ بامكانات منطقية وموسيقية في آن واحد . وعلى ذلك فقد قدر للادب من البداية ان يتشعب الى فرعين احدهما الشعر والثاني النثر . ولو تحدثنا بصورة مثالية فإن على النثر ، كي يحقق بشكل مطلق وظيفته الخاصة ، ان يتحولَ ألى ضرب من اللاسلكي او الجبر . وما عليه الا ان يكون مجرد ناقل صريح لما اريد له ان ينقل من معان ومقاصد . اي ان كماله يتجسد في اللغة العلمية الصارمة . وهذه ـ في الواقع ـ لا صلة لها على الاطلاق بالفن .

لكن للالفاظ وجهين يجعلان من النثر اداة فنية ـ وان كانت اداة خداعة . فمهما بذلنا من جهد واحكمنا عزل الكلمات عن اي شيء سوى معناها المجرد الاصلي ، فانها تظل مع كل ذلك محتفظة بطابعها التناغمي الحسي ، وتبقى مجرد تموجات واصوات حتى الصيغة الجبرية تملك ايقاعا لا يمكن اغفاله . بل ان نثر المختصرات الفلسفية يظل مطبوعا بنبرات لغته المتميزة الخاصة . فنثر ديكارت يعكس تناغم اللغة الفرنسية ، وقراءتنا لبرجسون Bergson ممتعة لما في كلامه من انغام واصوات .

ثم ان الالفاظ ليست محض تموجات صوتية . ان لها ظلالا شعورية تتلون وتتحدد بكل ملابسات الظروف التي احاطت بالانسان حين تعلمها ، كما ترتبط بحالة الانسان حين يستعملها . ولن تكون اللغة ابدا علما جبريا صرفا الا حين توضح المقاصد العلمية البحتة .

ان الالفاظ ليست عربات حيادية لمعان حيادية ، ذلك انها تعبر عن الاشياء الجذابة ، او الامور المنفرة مثل : البيت او الموت اما الالفاظ التي قد تكون معانيها محايدة في ذاتها فانها لا بد ان تكون مقترنة ـ في الوقت ذاته ـ بآلاف الارتباطات الذهنية غير الواعية بشكل منفر او ملذ .

واذ كان للالفاظ هذا الوضع المائع الخاص اعني كونها اصواتا موسيقية ورموزا منطقية وانفعالات عاطفية في الوقت عينه ، فان باستطاعتنا ان نعد النثر فنا مولدا . وهو ـ في اغلب الاحيان ـ يهمل ـ فيما عدا الكتابة الفنية المنمقة ـ امكاناته الموسيقية التي يستفيد منها الشعر على وجه التخصيص ان وظيفة النثر الخاصة تتحدد بكونه يستطيع استخدام امكانات اللغة التمثيلية والتوصيلية . ذلك انه يستطيع ان يسرد حكاية ، ان يشرح فكرة ، ان يوضح موقفا ، ان يصف موضعا ، ان يصور شخصية ، ان يناقش موضوعا . انه يؤيد ويلتمس ويقنع ويسرد ويحث . وفي امكانه ان يعبر عن مجموع التجربة الانسانية ، اذ لا يقع تحت تصرفه المعنى الظاهر الدقيق للكلمة حسب، وانما مجموع تناغماتها وايحاءاتها . وهو ـ بعد ذلك ـ يستطيع ان يستعير من اخيه فن الشعر ، التأثيرات الموسيقية ايضا واذ يملك فن النثر هذا المجال الواسع لتوصيل المعاني فانه لا يكتفي بان يظل محض وسيلة لغوية ، بل يصبح اداة عرضية لتاليف خيالي ، او ابداع روائي . ان حقله الرئيسي في ايامنا الحاضرة هو عالم الرواية الذي سنتعرض له في ختام هذا البحث .

تزداد اهمية الاداة اللغوية وتتضح في فن الشعر ، حيث لا يمكن للشاعر ، ولا لسامعيه ولا لقارئه ، ان ينسى اللغة ابدا . ان الشاعر ـ كما يقول سانتيانا Santayna في مكان ما ـ هو ـ اساسا ـ صائغ للالفاظ . انه يأسر الباب السامعين بالخصائص الموسيقية للكلمات . ولهذا فاننا نعتقد احيانا ان للشاعر الايطالي امتيازا خاصا ينفرد به ، اذ كيف لا يكون المرء شاعرا في لغة لا يستطيع الناطق بها ان يسأل عن الوقت ، او يطلب وجبة طعام ، الا بنبع متدفق من الحروف المتحركة الليّنة . وهناك ابيات لشيكسبير يتذكرها الانسان لمجرد كون

---

(١) عن كتاب : Arts and the Man. By Irwin Edman
Published by The New American Library New York

مقاطعها تنساب بعذوبة وتكاد تذوب في فمه . ولا يتوانى شعراء من مستوى سوينبرن Swinburne ، الذي تفتنه التموجات الايقاعية لاصوات الالفاظ ، عن كتابة هذيان من الكلام لمجرد تلذذهم بالتتابع النغمي البديع الذي يولده ذلك الهذيان . وهكذا صار بالامكان ان ندخل في باب الشعر اي بناء صوتي محض ، قائم على حروف ساكنة ومتحركة ، قد اختيرت بمهارة وتانق ، لكنها خالية من اي معنى ، وكانها زخارف قماش شرقي . وهناك شعراء ومتذوقون للشعر تتميز آذانهم بحساسية خارقة ، فهؤلاء يهتزون لنغم الصوت تماما مثلما يفتتن بصر الرسام بلون ورقة او بحيرة .

لكن وظيفة الشاعر لا تقتصر ـ كما هو واضح ـ على صياغة الالفاظ ـ فليس التنسيق البارع للحروف الصامتة والحركات هو كل جوهر الشعر ، بل انه ليس كل حقيقة الجانب الحسي من الشعر . ذلك ان التشابه بين اللغة والموسيقى ، لا يقتصر على مجرد كون مقاطع اللغة ، مماثلة لتدرجات الفواصل الموسيقية . فكما ان الفواصل الموسيقية المنفردة ليست هي كل الموسيقى ، فكذلك لا يمكن ان نعد الشعر ، مجرد مقاطع متفرقة مهما بلغ من عذوبتها او فخامتها . ان للصوت البشري نبضات ايقاعية لا يمكن اغفالها ، بل ان اللغة كلها ايقاعية بشكل لا مفر منه . وهذه الايقاعية الملازمة وتلك المقاطع المنفردة هما اللذان ـ يستخدمهما الشاعر ضمن المصادر الطبيعية لفنه .

يمكن تعريف (الوزن) الشعري بانه الاداة المخصصة للتخدير . فهناك دواع عميقة كائنة في طبيعة الحياة ذاتها ، في خفوق القلب وفي عملية التنفس يمكن اعتبارها المسؤولة عن سرعة تاثر الخيال البشري والاذن البشرية بالوزن . وفي الموسيقى تبدو هذه التاثيرات واضحة جلية ، اما في الشعر فان الاوزان هي التي تقوم بتحديد الجو التخيلي الخاص ـ اذا صح التعبير ـ الذي يقذف فيه السامع او القارىء ليستمع الى ما يريد الشاعر ان يقوله له . ان القصيدة هي حلم ، حالة مزاجية ، منظر مكبر او مصغر لتجربة ما ، عبر عنه الشاعر بكل قدراته الموسيقية اثر الهام مفاجىء هو سر موهبته الابداعية الخاصة .

لكن اوزان والت ويتمان Walt Whitman الحرة الطليقة ، وثنائيات بوب Pope الصلبة المحكمة ، وابيات سوينبرن Swinburne الطويلة المتراخية ، وقصائد ملتون Milton المرسلة الرنانة ، هي التي تتحدد ـ بغض النظر عن كل ما قيل ـ قوة اسر الشعر وسحره .

ان المجرى الاصلي للوزن ، الرمز الشامل للحلم المعبر عنه بالاصوات المنتقاة باتم نظام ، وبالنعوت الكاشفة الدقيقة ، ان ذلك هو الذي يؤلف او يقيم بناء الشعر ويوضح جوهره .

لكن ماذا نعني بحلم الشاعر؟ ان الاجابة على هذا السؤال توضح جزءا غير صغير من طبيعة الابداع الشعري، ومن ثم تعيننا على تقييمه. ان القصيدة هي شيء يتجاوز مقاطعها المتفرقة ونغماتها والفاظها ومعانيها التي يمكن ترجمتها او شرحها . انها عملية خلق كامل او هي نظام قائم بذاته يتولد في مكان كامن وراء نطاق وعي الشاعر ، ويتكون من حلم خلد فوق صفحة من الورق .

ولسنا نستطيع ان نقول الكثير عن كيفية تخمر آلاف الصور والانفعالات في ذكريات شاعر ما ، وتحولها الى ذلك الكيان الحي الذي هو القصيدة الكاملة . ولو امكننا معرفة ذلك لاستطعنا ان نفهم سر المواهب الاخرى اضافة الى موهبة الشعر . يقول وردزورث Wordsworth (ما الشعر الا انفعال استعيد عند السكينة) وبهذا القول يشير الى صفة جامعة من الصفات الاساسية لاية قصيدة رائعة . ذلك ان القصيدة او (الحلم) هي مزيج من الصور والرؤى والافكار ألفت او صهرت في كيان متماسك محكم اثناء حالة نفسية معينة . وفي امكاننا ان نترجم السونيت Sonnet (١) التي مطلعها :

The World is too much with us late and soon.

ان لغة النثر باعتبارها فكرة علمية . انها تخبرنا بان ضغط الاشياء والاحداث المختلفة سرعان ما يفسد نشوتنا البدائية بالعالم الطبيعي الذي يكتنفنا عند مجيئنا الى الدنيا . لكن جوهر القصيدة وما يمكن ان يدعي حياتها ، لا يمكن في عاطفتها التي عبر عنها بهذا الشكل ، ولا في مقاطعها المتفرقة التي تم جمعها ، انه الصلة العميقة التي تصل ما بين مزاج الشاعر او حلمه ، وهو ما يسمى برؤياه الشاملة ، وبين وعينا الذي تجلت فيه تلك الرؤيا . انها رؤى الشاعر وخبراته وانفعالاته التي تمثلت داخل شخصيته فتحولت لا الى محض قصيدة مسطورة على الورق وانما الى نظام كامل خالد في عالم الابدية . والان فان ذلك التاثير الشامل النافذ الذي يحفر للاشياء في نفوسنا انطباعات خالدة حية مثالية ، هو الذي اطلقنا عليه اسم : حلم الشاعر . ثم ان ايصال ذلك الحلم هو مهمة الشاعر الاساسية . وهذه المهمة لا تتحقق الا عن طريق الوزن

وتستعمل كلمة (تخديري) في وصف الشعر احيانا ، كما اننا في احيان اخرى نتحدث عن (سحر الشعر) . لكن الغريب ان هاتين الكلمتين متضادتان . فقد يقال ان السحر يكمن في العبادة التي تهز النفس ، وفي عذوبتها التي لا يمكن وصفها ، اما (التخدير) فيظهر في ذلك الانتباه القسري او الاستفزاز العاطفي الذي يحدث لدينا بتاثير الاوزان . ان الوزن يولد حالة نفسية معينة ، فتتدفق المشاعر مع مجراه . ذلك هو احد الاسباب التي تهيىء للقصيدة ان تترك في انفسنا اثرا تعجز عن تقدير مداه البعيد العظيم . فلقد شاركنا لفترة قصيرة ، في ذلك الحلم المنظم ، الذي هو القصيدة .. ان دقات ايقاعاتها تواكب خفقات قلوبنا . وفي الحقيقة فان كل من تهيا له ان ينظم شعرا ، يعلم ان اية قصيدة انما تبدا اولا في الدماغ كضرب من الايقاع غير المصحوب باي معنى واضح . وكثير من القصائد في تاريخ الادب الانجليزي بدات على شكل لحن استمر يرن في خيال الشاعر ، وبالتدريج راح شكله يتحدد بالكلمات والمعاني . وكل متذوق للشعر يعلم ان ما يحبه ويهز اعماقه انما هو انسياب التفعيلات في نظامها العروضي الجميل . وقد يكون الوزن عاديا كما في تلك الابيات التي لازمت ذهن مارك توين Mark Twain لفترة من الزمن ، وهي تبدا هكذا :

A blue trip slip for a three cent, fare.

وقد يتصف بكل ذلك التناسق الجميل الذي نعرفه في شعر ملتون المرسل . لكن الطرب والاهتزاز يزولان ويفنيان حينما يهمل ركن الوزن . فمهما بلغت فخامة الالفاظ ، ومهما احسن اختيارها ، فانها لن ترقص في فؤاد القارىء ، وتصبح اثناء تلك التجربة حياته كلها ، ما لم تمتلك (تخديرية) الوزن .

ان صفات الرخامة والايقاعية وشدة التاثير التي ينفرد بها الوزن ليست في حد ذاتها المسؤولة عن قوة مفعول الشعر ، وشده اسره . ولو كان الشعر مجرد مقاطع والفاظ منغمة لتحول الى موسيقى تقبلها الاصوات والتراكيب الخاصة باللغة . وعندئذ يخسر ذلك التوافق المركب المنسجم الذي تنفرد به الموسيقى . والشعر قد يكون ـ كما تمنى له نفر من الشعراء ـ محض موسيقى ، لكن هذه الموسيقى ـ لو قورنت بالموسيقى الحقيقية ستكون شديدة الضعف . ولسنا في حاجة الى شرح مطول لنعرف ان الشعر انما يتالف من الفاظ ، وان الالفاظ ليست مجرد اصوات . وانما هي كلام ايضا . وان مغزى الكلمات لا يمكن اغفاله ابدا . ولو فعل شاعر ذلك ، واهمل استخدام الصفة الكلامية للالفاظ لضيع واحدا من اهم اركان فنه .

والان فان لكل كلمة دلالتين : احداهما المنطقية والثانية النفسية . وعلى هذه الازدواجية يتوقف فن الشاعر الى حد ما . لكن ما يهم الشاعر هو ظلال الالفاظ ، ايحاءاتها التي يحرص العالم على تجاهلها . وان اهتمام الشاعر ينصب على شدة اسر الالفاظ لا على مدى صدقها .

التتمة على الصفحة ـ ٨٦ ـ

(١) السونيت : قصيدة او مقطوعة شعرية تتالف من اربعة عشر بيتا . نظم شيكسبير اروع نماذج لها .

العالم واللغة والشاعر

ـ تابع المنشور على الصفحة ـ ٩

وما يسعى اليه هو ايصال التجربة بكل حيويتها الى الناس ، والتجربة قد تكون حدثا مثيرا ، او وصفا نفسيا خاصا ، او افكارا مجردة . الشاعر يريد ان يمجد بهاء الكون وفتنته ، وان ينقل التجارب التي عاناها فايقظت حواسه ، وحركت عواطفه واستنفرت افكاره . ومن اجل ذلك فانه يفضل الالفاظ التي تثير لدى القارىء او تولد عنده حالة نفسية معينة ، بدلا من ان تنقل اليه محض صور او احاسيس او افكار . والالفاظ في الشعر ليست رموزا رياضية وانما هي محرضات عاطفية . انها لا تتكلم عن الاشياء حسب انما تتحدث الى النفس اليقظة .

وفي الواقع فان الشاعر ينهمك في ايقاظ الخيال الفاقد لا بواسطة عذوبة الانغام ومجرى الوزن حسب ، وانما بواسطة الالفاظ المحركة للعواطف ايضا . ان هذا التحريك للعواطف يعتمد ببساطة على انتقاء الشاعر للالفاظ التي تستطيع ان تحطم مفاهيمنا الاصطلاحية التجريدية لاية تجربة ، فتحولها الى احاسيس متفجرة في خيال طري غض هو خيال طفل . انه يملأ شعره بالتفاصيل الحسية الملموسة ، فهو بعدد الالوان والعطور والمذاقات والملامس ، وكل مظاهر ذلك العالم الذي صار شيئا روتينيا جامدا لدى الانسان البالغ العملي .

ان احد مفاخر الشعر الانجليزي ، وكل شعر ، هو تلك العذوبة الطفولية المتجلية في الانطباعات الحسية التي ينقلها الشاعر . وان شعر هوميروس Homer وملتون Milton وكيتس Keats يقوم على هذه الانطباعات المشرقة الفورية . والشاعر ـ باختياره للالفاظ المثيرة يرسم مظهرا فاتنا للاشياء . ولهذا نراه يطلق على الكائنات اسماء ذات حدود حسية مثل : السواد الخمري للبحر، الفجر ذي الاصابع الوردية وهلم جرا .

وبامكاننا ـ تقريبا ـ ان نقول : ان مهمة الشاعر هي ان ينسى اغلب الامور التي تهمنا في حياتنا اليومية . وان عليه من جهة اخرى ان يعيد الينا ـ كما يفعل كل موفق من الشعراء ـ فورة الاحاسيس وجدتها . ولكي يحقق هذا الهدف ينبغي له ان ينتخب الالفاظ السهلة الحسية الانفعالية لان الشعر الذي يترك عواطفنا خامدة لن يستطيع ان يخاطب ارواحنا بسهولة . على ان الاثارة العاطفية التي هي الشعر لن تتحقق بمجرد استعمال الكلمات العاطفية ، لان الكثير من هذه الكلمات فقدت بهاءها ورونقها بطول الاستعمال لكن الشاعر يباغتنا دوما بمفهوم جديد للكلمة بواسطة اقترانات محيّرة غير متوقعة .

لقد الفت كتب حول استعمال التشبيه والاستعارة . والتشبيه والاستعارة اسلوبان يساعدان على تجديد خبراتنا ونفخ الحياة فيها ، عن طريق تحطيم الاقترانات الرتيبة للاشياء واستبدالها باقترانات طرية جديدة . لكن استعمال الاساليب المجازية لا يعني مجرد استعادة بهاء الاشياء ، وانما منحها الحياة عن طريق ربطها بعواطفنا وآمالنا ومخاوفنا ومعتقداتنا ورغباتنا . وبمثل المجاز والتشبيه تمرد الشاعر على الانطباعات اليومية الرتيبة ، فالقمر يتحول من مجرد قرص ابيض الى ملكة لليل . والشمس تصبح الها يافعا يقود عربته عبر السماء . والجمال يمسي شمعة مضيئة تنير الكون الملهم ، وهكذا دواليك .

واخيرا فان اللغة جميعها مجازية لان الناس حين يعبّرون بالكلام عن تجاربهم او خبراتهم العلمية ، لا يفعلون ذلك الا باساليب شديدة الالتواء ، لكن الشعر بانتقائه للالفاظ الحسية المفعمة بالحيوية ، وبربطه بين انطباعاتنا ومشاعرنا ، يصبح اقرب الى صلب الموضوع من اي سلوب تعبيري اخر . ولهذا السبب لا يمكننا ابدا ان نشرح المعنى الدقيق لاية قصيدة ، كما لا نستطيع ان نترجمها الى لغة اخرى ترجمة مضبوطة . وهل في طوقك ان تنقل احساس جلدك بملمس قماش الجوخ ؟ وهل تستطيع ان تشعر غيرك بمذاق الاجاصة التي في فمك ؟!

على ان الشاعر ليس طفلا . ان مشاعره مهذبة ، ومزاجه معقد ، ومن واجبه كفنان ان يترجم بمهارة الانفعالات النفسية بكل واقعيتها واحتدامها . وتدلنا المواضيع التي نظم فيها الشعراء : (الحياة ، الشباب ، الجمال) ، على انهم يعانون ما يعانيه سائر الناس من مشاعر وانفعالات ، غير ان قصائدهم في هذه المواضيع رنانة وخالدة ، لا لكون هذه المواضيع عالية او مبتذلة ، وانما لان كلماتهم ، اشعارهم، في كل حالة معينة ، تستطيع ان تصور مزاجا نفسيا معينا بدقة خارقة استمع الى شيكسبير في احد سونيتاته :

لا ، لا تقل ابدا ،
حين تظن البعاد
قد خفف لهيبي ،
اني كنت كاذبا في حبي .
فلو كان بالامكان ان افارق نفسي ،
لفارقت روحي التي تسكن بين جنبيك .

لقد شعر آلاف الرجال والنساء بهذه العاطفة نحو من يحبون ، وعجزوا عن التعبير عنها ، لكنهم يجدون في ابيات شيكسبير شعورهم العادي منقولا باسلوب غير عادي ، وبعبارة مفعمة بالحياة . ان قصيدة حب ، بمكنها بواقعيتها المضيئة ، ان تعلمهم حقيقة عاطفتهم الخاصة .

وفي عالم العواطف يمكن ان نعد الشعر احسن وسائل التعبير ، واكثرها ملاءمة . فما هو نافه ، وغير جدير باهتمام العالم او الرجل العملي يصبح امرا جوهريا لدى الشاعر . ذلك ان الشاعر لا يهمه من الماء تركيبه بقدر ما يهمه تلألؤه وبهاؤه . كما ان مادة الشمس لا تثيره بقدر ما تهزه البركات التي تمنحها الشمس للارض . ثم ان المثيرات في مسألة العواطف قد تكون متباينة وشديدة الاختلاف ، فقد نجدها في صوفية بليك Blake او في مثالية شيلي Shelley او في غزليات دون Donne او في العشق الالهي عند دانتي Dante لكن ما يدفع الى تخمر الصور والالحان في نفس الشاعر ، والذي هو بداية الخلق الشعري ، انما هو احتدام الحياة او اضطرام الشعور الذي يحاول الشاعر ان يفصح عنه وان يشاركه الاخرون في احساسه به . وفي مقال (ما الفن ؟)بعد تولستوي الاخلاص اعلى فضيلة جمالية ورغم ان تولستوي كان ينظر الى الاخلاص من الجانب الاخلاقي ، الا ان الاخلاص يعد كذلك فضيلة ، في المعنى الجمالي البحت . ذلك ان شيئا من نار ينبغي ان يلهب القصيدة ، وتتبدى مهارة الشاعر ، كلما وفق الى نقل هذا اللهب الى فؤاد القارىء .

ثم ان الشاعر يتحمس للاشياء والاشخاص والافكار . والافكار هي خبرات ايضا . وهذه الافكار قد يكون لها اقدامها وايديها ـ على حد تعبير النرجس ـ فلقد انتشى قلب وردزورث Wordsworth ورقص مع زهور النرجس . لكن الافكار يمكنها كذلك ان ترقص القلب . فلنستمع الى هذا المقطع من الشعر : ـ

في الليلة الماضية رأيت الابدية
تتلألأ مثل خاتم عظيم ، لا حد لنوره .

وفي قصائد الشعراء المثاليين الانجليز وفي مقدمتهم لوكرتيوس Lucretius نجد الافكار تفيض حياة وصورا والحانا مثل زهرة نضرة

والمعروف ان الخصومة قد نشبت منذ عهد بعيد بين الفلسفة والشعر ، بين اهتمام المفكر بتحليل الآراء والافكار ، وانشغال الشاعر بنقل العواطف والاحاسيس . وليس من حاجة للرجوع الى ما قبل افلاطون لكي ندرك سهولة استثارة الافكار واشعال النار فيها . ذلك ان الفكرة قد لا تنقل عن طريق العبارة او الصيغة المنطقية وحسب ، وانما قد توصل بواسطة اسطورة او كلام مجازي . وقد يعبر عنها باسلوب ذي صور حسية كما جاء في وصف افلاطون للخلود : ـ

(مركبة الروح في طوافها الابدي بين السماوات) ان كل شيء صغيرا كان او كبيرا ، محسوسا او مجردا يستطيع ان يحرك خيال

الشاعر . فان كان خياله عميقا وفق ـ كما فعل لوكريتوس ـ Lucretius الى ان يحول رؤاه عن طبائع الاشياء الى ملحمة رائعة ، تكمن عظمتها في نبل موضوعها وضخامته ، وفي عباراتها الخيالية والموسيقيـــة والوجدانية . وصحيح ايضا ان من النادر ان يجتمع العقل الباحث الحر ، والابداع الموسيقي التخيلي لدى انسان معين في آن واحد . لكن هاتين الموهبتين حين تجتمعان لدى انسان واحد تكون النتيجـة قصيدة تجمع بين الانفعالية والشمول مثـل الكوميديـا الالهيـة The Divine Comedy او الفردوس المفقود Paradise Lost

وفي عصرنا هذا ايضا من الممكن ان يظهر شاعر في مقدوره ان يترجم كل معتقدات الناس ، التي كونها العلم المعاصر ، الى شعر خيالـي حسي شامل متعمدا ان يهز افكارهم ويحرك خيالهم في آن واحد . وليس هناك موضوع شعري في حد ذاته ، بل يوجد مواهب شعريـة يمكن ان تبدد على برعمة ناعمة او تبذل على الكون الكبير . ذلك يعتمد على نوع الخبرة التخيلية لدى الشاعر .

* *

اما فن النثر فهو يقودنا الى عوالم مختلفة اخرى ، على الرغم من وجود منطقة مشتركة يصعب فيها الفصل بين الشعر والنثر . وقـد اشرنا في اول المقال الى ان النثر في صورته المتطرفة ، هو فن تكون فيه اللغة ـ بحد ذاتها ـ وسيلة عرضية ، اي ان ما يقال اهم مـن الاسلوب الذي يقال به . وفي هذه الحالة لا يعتبر النثر فنا عـلى الاطلاق ، بل يكون محض وسيلة للتفاهم ، جهاز تلغرافي للرمـوز العملية ، او بناء منظم من الصيغ الموجزة . ومعنى ذلك انه علم بحت

اما الشكل الشعري للنثر فمن الصعب ان نحدد بالضبط الفرق بينه وبين اخيه الفن ، ذلك ان النثر له عناصره اللغوية والموسيقيـة الخالصة ، التي لا يفوت اي كاتب موهوب او قاريء متذوق ان يلاحظها والكاتب الموهوب يستخدم مثل الفنان ايضا تناغم الاصوات الساكنـة والمتحركة ، كما ان للنثر ايقاعاته على الرغم من كونه اكثر حرية وادق من الشعر . والحق اننا نستطيع ان نعد النثر ضربا من الشعر الاوسع آفاقا والاشد انطلاقا . وهناك كاتب مثل باتر Pater يقرا لمقاطعه وعباراته ، او دى كوينسي De Quincey الذي يقرا لاخيلته واوزانه ، او رسكن Ruskin الذي يقرا لمحسناته البيانية ، ومع ذلك فان بعض النقاد لا يعدون هؤلاء في الطبقة العليا من الكتاب ، لمجـرد ان اساليبهم يلفها الغموض .

ان الرواية تقدم مثلا او نموذجا ممتعا رئيسا متميزا للمبـاديء الجمالية العامة . فالقصة شاهد اكيد على عملية الابداع الخالصة . فهي تلقي ضوءا على كل عملية التخيل . ان الخبرة بدءا من ابسط ادراك للاشياء ، انما هي نوع من التخيل القصصي فنحن لا نرى الاشياء وانما نؤلفها في مخيلتنا من الحوافز الناشئة عن المادة المتاصلة ، او النزوة الطارئة . وبتعبير ابعد عن المعنى المجازي ، تكون الكراسـي والمناضد ، والاشجار والابنية وغير ذلك هي العمل الذي تنهمك فـي تصوره مخيلتنا . وان تدفق الخبرات هو المجهز للمعطيات التي تؤلف منها العالم الراسخ الذي يكتنفنا . والحقيقة ان ادراكنا للعالم انمـا هو قصة ذات سمة بنائية . ويبدو ذلك اشد وضوحا في نظرتنا الى الناس الاخرين ، فحتى اقرب اصدقائنا انما هم قصة ننسجها نحن . انهم رواية غير مترابطة الاجزاء تاتينا عن طريق الاشاعات التي نسمعها عنهم . ونحن الذين نؤلف هذه الاجزاء ، ونجمعها في فكرة تخيليـة نسميها : اصدقاء !

ان الروائي يجعل من التفاصيل خلفية لروايته ومن الاحـداث تاريخا متتابعا ، اما الافعال والمشاعر والاراء فيؤلف منها بطل الرواية .

ان الروائي يخلق عالما ثابتا مثل العالم الذي نعيش فيه بل اكثر رسوخا . ان شخصيات رواية ديفيد كوبرفيلد David Copper Field وانا كارنينا Anna Karénina وتوم جونز، كانت

وما تزال اقرب الى الواقع ، واشد حيوية من اولئك الاشخاص الذين تعرفهم نصف معرفة ونعني جيرانك . ثم ان هذه الشخوص الروائية لاتعيش في عالمها الخاص حسب بل ان عالمها موجود فعلا . ذلك ان المجتمع الروسي الذي عاشت فيه انا كارنينا حياتها المتالقة الفاجعة قد ذهب الى الابد بعد قيام الثورة والحرب . ولكن روحية هذا المجتمع وسبل تفكير ابناء الشعب موجودة هناك . ان تولستوي في عملـه لم (يمثل) فقط ، وانما (خلق) حضارة كاملة .

ان اشد ما يروقنا في القصة انها تمكننا من المشاركة بالخيال في مصائر الكائنات التي يبتدعها القصصي ، دون ان نخسر نحن شيئا . اننا نتحرك مع ابطال الرواية في بلاد لم نزرها قط ، ونحس بعواطف لم نعرفها ابدا . وهذا التدخل في حياة اوسع ، واشد تنوعا مـن حياتنا يمكننا بالمقابل ان نقدر الحياة التي نحياها نحن بصورة افضل. ان الروائي بمعنى من المعاني هو الفيلسوف الذي يهدينا سواء السبيل، ذلك ان اي تنظيم للناس ضمن قصة انما يتضمن تفهما للقدر وفلسفة عن الدنيا ، وان اقل الروائيين تفلسفا ، يكشف عن حال الدنيا ، دنياه هو ، حين ينتقي الاحداث ويقيم بناء الظروف والاوضاع فـي قصته . واذ نعتبر هاردي Hardy وتوماس مان Thomas Mann وانا تول فرانس فلاسفة فلا بد لنا ان نقر بان فلسفتهم اغنى واشـد تالقا من مذاهب الفلاسفة الاكاديميين . وهم يعبرون ـ من خلال مسلك ابطالهم ـ عن تقييمهم الشامل للوجود . لكنهم لا يحكمون على العالم حسب ، وانما يخلقونه . ومن المصير ان نجد في الفلسفة السائدة عالما اكمل واقرب الى الافهام من عالم الروائي ، (١) هذا الكائن المتخيل الذي يطوف عقله ابدا في عالم الابدية ، ويرتحل خياله منطلقا دوما في آماد الزمان ومسافات المكان .

بغداد — احسان الملائكة

نيسان ١٩٧١

---

(١) الترجمة قد لا تتفق مع الكاتب في بعض آرائه .

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربيـة في

القطر السوري .